

الباب الأول

التعرف على الطريقة الصوفية

الفصل الأول : تعريف الطريقة

(أ) أصل كلمة الطريقة في اللغة

الطريقة لغة من (طرق، يطرق، الطريق) أي سلكه،¹ و(طريق) سبيل.² والطريق والطريقة كلمتان مترادفتان للسيرة والمذهب.³ وجمعه طرائق وطرق، وهو من فعل طرق، يطرق أو يطرق، طريق، له معان مختلفة بحسب الوزن والسياق.⁴

مثال ذلك، يقال : طرق النجاد الصوف بالعود⁵ إذا ضربه بالعود فطرق هنا بمعنى ضرب.

ويقال : طرق القوم⁶ إذا جاءهم ليلاً. فطرق هنا بمعنى جاء بالليل.

¹ شعبان عبد العاطي عطية. 2004م/1425هـ. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية. مكتبة الشروق الدولية. ج،3. الطبعة الرابعة.

² الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي. 1985م. مختار الصحاح. بيروت. مكتبة لبنان.

³ ابن المنظور. 1375هـ/1965م. لسان العرب. القاهرة. دار المعارف. ص : 2665.

⁴ المرجع السابق. ج 10. ص : 464. لويس معلوف. 1960م. المنجد في اللغة. بيروت. المطبعة الكاثوليكية. ص : 464-465.

⁵ المرجع السابق. لسان العرب ج،10. ص : 464.

⁶ المرجع السابق. لسان العرب ج،10. ص : 465.

ويقال : طرقت الإبل الماء⁷ إذا بعرت فيه وبالت. فطرق هنا بمعنى بعر وبال.

ويقال : أطرق الرجل⁸ إذا سكت فلم يتكلم، فأطرق هنا بمعنى سكت فلم يتكلم.

ويقال تطارق القوم⁹ إذا اتبع بعضهم سبيل بعض، فتطارق هنا بمعنى اتبع السبيل.

ويقال : تطرّق إلى الأمر¹⁰ إذا بحث عن حله فتطرّق هنا بمعنى بحث عن حل. وذكر في

حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - : يُحَدِّثُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يُخْبِرُ عَنِ

النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، قَالَ : (أَعُوذُ بِوَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ..، وَمِنْ شَرِّ طَوَارِقِ اللَّيْلِ، وَمِنْ

شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ خَيْرٌ...¹¹ "يطرق" هنا يحمل على يأتي أو يحدث.¹²

فتبين من هذا البيان الموجز عن طرق - يطرق، وطرق - يطرق أن لكل من الفعلين معان

مختلفة بحسب السياق والوزن. وبحسب معاني كل من هذين الفعلين، فلا بد لكلمة طريقة من

⁷ المرجع السابق. لسان العرب ج، 10، ص : 464 - 465.

⁸ المرجع السابق. لسان العرب ج، 10، ص : 464 - 465.

⁹ المرجع السابق. لسان العرب ج، 10، ص : 464 - 465.

¹⁰ المرجع السابق. لسان العرب ج، 10، ص : 464 - 465.

¹¹ البيهقي. أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي. بلون التاريخ. الأسماء والصفات. تحقيق عبد الله بن محمد الحاشدي. جدة. مكتبة

السوادي. ج، 2. الطبعة الأولى.

¹² المرجع السابق. لسان العرب ج، 10، ص : 464 - 465.

معان متعددة، فالطريقة صفة مشبهة لاسم الفاعل أو اسم المفعول مثل الصغير، والكبير، وكثير، وكرم، وبخيل، وغيرها.¹³

(ب) الطريقة في الاصطلاح

إن كلمة طريقة كما مر لها معان متعددة، منها لغة بمعنى السبيل، والشارع، والعادة، والتقاليد، والمذهب، والمنهج، والسنة وغيرها، ولذلك يقال : طريقة الاستعمال أي دليل الاستعمال. ويقال : طريقة الدين، أي سبيل الدين. ويقال : طريقة الإحسان، أي سبيل الإحسان، ويقال : طريقة القوم، أي : قلوبهم أو عاداتهم أو تقاليدهم وغيرها.

فإن إطلاق طريقة يرادف إطلاق الطريق من الجوانب المتعددة. كما أن الطريقة للمثني والطريق للمذكر. وذكر لفظ الطريقة في القرآن عدة مرات بمعان متعددة كما أن الطريقة والطريق ذكر فيه بمعنى السبيل والمكانة. قال تعالى : (وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا).¹⁴ وقال تعالى : (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِنَّ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا).¹⁵ وقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَجْزِيهِمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقًا. إِلَّا طَرِيقَ

¹³ المغني. سعيد المغني. 1970م. قواعد اللغة العربية. بيروت. دار الفكر. ص: 206 - 207.

¹⁴ سورة الجن: 16.

¹⁵ سورة طه: 104.

جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا¹⁶. يتبين من ثلاث الآيات السابقة أن

اصطلاحى الطريقة والطريق يستعملان لمعنى "سبيل" ومع ذلك فإن طريقة يطلق في القرآن

بمعنى المكانة وقال تعالى : (قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا

وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى)¹⁷.

فإطلاق الطريقة والطريق في القرآن بمعنى السبيل، يمكن أن نقول أن معناه مثل اطلاق السبيل

والصراط إذا وجدنا اطلاقهما في القرآن، حيث ذكرنا فيه عدة مرات مثل قوله تعالى : (فِي

سَبِيلِ اللَّهِ)¹⁸. وقوله تعالى : (فِي سَبِيلِ الطَّاعُوتِ)¹⁹. (سَبِيلِ الْمُفْسِدِينَ)²⁰. (الصِّرَاطَ

الْمُسْتَقِيمَ)²¹. (صِرَاطِ الْعَصِيدِ)²² وغيرها.

وفي حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله

- صلى الله عليه وسلم - قال : (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى

¹⁶ سورة النساء : 168-169.

¹⁷ سورة طه : 63.

¹⁸ سورة البقرة : 154.

¹⁹ سورة النساء : 76.

²⁰ سورة الأعراف : 142.

²¹ سورة الفاتحة : 6.

²² سورة الحج : 24.

الجنّة).²³ ويستخدم علماء التصوف كلمة الطريقة والطريق لمثل هذه المعاني اللغوية، بجانب معناه الاصطلاحي الخاص. وهذا الاستخدام معروف ونجده في مؤلفاتهم بسهولة.

وفي علم التصوف، اختلف العلماء المتصوفين والباحثين في تعريف الطريقة. وعرف الشيخ الجرجاني المتوفي سنة (816هـ) فقال: "الطريقة هي السبيل المختص للسالكين إلى الله تعالى من قطع المنازل والترقي في المقامات".²⁴

وعرف الشيخ نجم الدين الكبرى، المتوفي سنة (618هـ) وقال: "الطريقة هي التقوى والتقرب إلى الله تعالى من قطع المنازل والترقي في المقامات".²⁵

وإذا نظرنا إلى التعريفين السابقين وجدنا أنهما متشابهان، لكن الشيخ نجم الدين الكبرى بين مكانة الطريقة وعلاقتها مع الشريعة والحقيقة، لأن قصده لتكون الطريقة مفهومة وأكثر وضوحاً. ولذلك صرح في الكتاب وقال: "الشريعة كالسفينة، والطريقة كالبحر، والحقيقة

²³ مسلم. أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد. بدون التاريخ. صحيح مسلم. القاهرة. دار الكتب العربية. ج. 1. ص: 67.

²⁴ الجرجاني. العلامة علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني. بدون تاريخ. كتاب التعريفات. تحقيق الدكتور عبد المنعم الحفني. القاهرة. دار الرشد. ص: 182.

²⁵ الترمذي. الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن الحاكم الترمذي. 1965م. نختم الأولياء. تحقيق عثمان اسماعيل يحي. بيروت. المطبعة الكاثوليكية. ص: 475.

كالدر. ومن أراد الدر ركب في السفينة ثم شرع في البحر ثم وصل إلى الدر. فمن ترك هذا الترتيب لم يصل إلى الدر".²⁶

فالمراد منها لتكون المصطلحات الثلاثة - الشريعة، والطريقة، والحقيقة - أكثر وضوحاً. وقد مثل الشيخ نجم الدين الكبرى عن تلك المصطلحات بأمثلة، منها في الطهارة : طهارة الشريعة بالماء، وطهارة الطريقة بالتخليّة عن الهوى، وطهارة الحقيقة خلوة القلب عما سوى الله تعالى.²⁷

فيفهم منه أن من يركب الوصول إلى حقيقة التوحيد ويحصل على مشاهدة حقيقة التوحيد، فعليه التطهر من النجاسات والحدّث صغيرة وكبيرة. ثم التخلي من الأوصاف الذميمة والتخلي بالأوصاف الحميدة. فبعد الحصول على هذين الخصلتين وصل إلى طهارة الحقيقة.

فكذلك الصلاة ولها ثلاث درجات، والصلاة جامعة لهذه الخصال الثلاثة : إن الصلاة الخدمة والقربة والوصلة. فالخدمة في الشريعة، والقربة في الطريقة، والوصلة هي الحقيقة. صلاة الشريعة بالأذكار والأركان، وصلاة الطريقة بالانخلاع عن الأكوان والتوجه بالكلية إلى الرحمن،

²⁶ المرجع السابق. ختم الأولياء. ص : 574.

²⁷ المرجع السابق. ختم الأولياء. ص : 476.

واستفراغه بذات المناجاة، في كل زمان ومكان وأما الحقيقة فهو الوصول إلى المقصد، ومشاهدة نور التجلي.²⁸

فالصلاة في الشريعة الإنقياد بالجاهدة وأداء الأركان قولية وفعلية. وفي الطريقة استشعار القرية إلى الله عز وجل بالذهول عما سواه، وصرف القلب كلياً إلى الله وحده بالمناجاة وفي كل الأوقات، وفي الحقيقة دوام المشاهدة إلى عظمة الله وحده وكماله.

ولذلك ذكر الشيخ نجم الدين الكبري خلاصة آراء بعض العلماء عن مصطلحات الثلاث المذكورة فقال: "الشريعة أن تعبد بالطريقة أن تحضره والحقيقة أن تشهد".²⁹

فالشريعة هي العبودية لله، والطريقة استشعار القلب إلى الله بدوام الذكر، والحقيقة أن تشهد الله بعين البصيرة.

وعند مولانا زكريا الكاندهلوي، المتوفى (1045هـ) فإن المقصود من اصطلاح الطريقة يساوي "الإحسان" الذي ذكر في حديث جبريل - عليه السلام - الذي رواه عمر بن الخطاب -

²⁸ المرجع السابق. ختم الأولياء. ص : 576.

²⁹ المرجع السابق. ختم الأولياء. ص : 474.

رضي الله عنه - وفيه قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).³⁰

وصرح مولانا الكاندهلوي رأيته، فقال : "والطريقة في الواقع هي اسم ثان للإحسان المذكور في الحديث - أو أنها الطريقة التي يمكن بها الحصول على صفة "الإحسان" - وهو الذي يقال له التصوف أو السلوك، أو تسميه بما شئت، فإنما هي تعبيرات وألفاظ مختلفة والمقصود واحد".³¹

وبناء على تعريف مولانا محمد زكريا الكاندهلوي للطريقة، فإنها تساوي التصوف. وعلى الأوضح أن علم الطريقة هو علم التصوف واعتبر علماء التصوف هذين المصطلحين بمعنى واحد. ذكر الشيخ عبد الصمد الفليمباني : ويستفاد من كلام الغزالي في كتابه "جواهر القرآن" أن علم الطريقة والسلوك يسمى بعلم

³⁰ رواه مسلم. صحيح مسلم. ج، 1. ص : 37-38.

³¹ الكاندهلوي. محمد زكريا الكاندهلوي. 1399هـ. الشريعة والطريقة. القاهرة. دار الإرشاد. ص : 100.

التصوف³² ثم عنده أن علم الطريقة أو التصوف يسمى أيضا بعلم المعرفة، وعلم الحقيقة، وعلم النافع، وعلم الباطن.³³

والمصطلحات السابقة بعضها ذكر في حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - وبعضها ذكرت في أثر الصحابة وذلك مثل قول النبي - صلى الله عليه وسلم - العلم علمان : علم القلب وذلك العلم النافع، عِلْمُ الأنبياء والمرسلون، وعلم اللسان، وذلك حجة الله على خلقه. وأرجو الله تعالى أن يكون لك نصيب من علم الباطن.³⁴

فمن هذه التعريفات السابقة نجد أن تعريف مولانا محمد زكريا الكاندهلوي هو الأوضح وأقرب إلى الفهم، لأنه يرجع إلى الإحسان الذي كان معناه معروفاً، وهو ترقية الإيمان والإسلام إلى ما هو أحسن حتى صار المسلم حسناً. فذلك مجرد إطلاق الطريقة يتبادر إلى فهم السامعين أن المراد منها هو السبيل الذي يوصل إلى درجة الإحسان (طريقة الإحسان)، أو السبيل الذي يوصل إلى التصوف (طريقة التصوف)، أو سبيل طائفة من أهل التصوف

³² الفلمباني. الشيخ عبد الصمد الفلمباني. بدون تاريخ. سير السالكين في طريقة السادات الصوفية. عيسى البابي الحلبي. دار إحياء الكتب العربية. ج، 2. ص : 5.

³³ عبد الصمد الفلمباني. المرجع السابق. ص : 6.

³⁴ عبد الصمد الفلمباني. المرجع السابق. ص : 132. قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحد. محمد د. عاصم إبراهيم الكيالي بيروت. دار الكتب العلمية. الطبعة الثانية. ج، 2. ص : 210. وروينا عن الحسن البصري عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (العلم علمان، فعلم باطن في القلب فذاك هو النافع، وسئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن معنى قوله تعالى : (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ). الأنعام : 125. أبي طالب المكي، محمد بن علي بن عطية الحارثي. 1426هـ/2005م.

(طريقة الصوفية)، أو السبيل إلى الله ومرضاته (طريقة إلى الله)، أو سبيل إلى معرفة الله (طريقة معرفة الله) وغيرها مما في معناها.

الفصل الثاني : تطوّر الطريقة الصوفية في التاريخ الإسلامي

يتناول هذا المبحث الكلام عن تاريخ تطور الطريقة الصوفية على وجه الإيجاز، من عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى زمان ظهور الفرق أو المذاهب في الطريقة، وأيضا الكلام عن المسائل التي لها علاقة مع ذلك التاريخ، والهدف الأساسي من هذا الكلام هو التحقيق بأن الطريقة من تعاليم الإسلام وسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

اصطلاح الطريقة لم يستخدم في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في علم التصوف رغم وجود تعليمها، ومبادئها، وأعمالها الخيرية، وغيرها من عناصرها الأساسية في ذلك العهد لأن هذا المصطلح مثل غيره من المصطلحات كالشريعة، والفقهاء، والتفسير، وغيرها تظهر وتستخدم في العصر التالي.

قال الدكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني : "وأصبحت لفظة "طريقة" عند الصوفية المتأخرين تطلق على مجموعة أفراد من الصوفية ينتسبون إلى شيخ معين، ويخضعون لنظام دقيق في

السلوك الروحي، ويحيون حياة جماعية في الزوايا والخانقافات أو يجتمعون اجتماعات دورية في مناسبات معينة ويعقدون مجالس العلم والذكر بانتظام".³⁵

وصرح ابن خلدون المتوفى سنة (809هـ) هذه الحقيقة فقال : "هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن تصرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجئح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبولون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة".³⁶

فالمراد من العبادة والأعمال هنا هي التي كانت منتشرة عامة في الصحابة والسلف. فهؤلاء استمتعوا بالعبادة، حينما اشتغل الناس بالدنيا وزخايفها.

المبحث الأول : عهد رسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه - رضي الله عنهم -

³⁵ التفتازاني. الدكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني. 1991م/1411هـ. محاضرات في التصوف الإسلامي. القاهرة. معهد الدراسات الإسلامية. ص: 195.

³⁶ ابن خلدون. العلامة الشيخ عبد الرحمن بن خلدون. 1986م/1406هـ. مقدمة ابن خلدون. بيروت. دار القلم. جزء 1. ص : 582. ارجع إلى عبد القادر عيسى، حقائق التصوف. ص : 205.

وفي عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه توجد عناصر متعددة تتعلق بالطرق الصوفية، وينبغي النظر فيها ليتضح ما ادعاه المتصوفون من أن أعمال الطرق الصوفية من السنة التي واطها النبي - صلى الله عليه وسلم - ولا تنفك عنه.

وفي القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والسيرة النبوية وآثار الصحابة ما يكشف بوضوح عن تلك الحقيقة، بل التصوف كان موجودا قبل نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وقد عمل - صلى الله عليه وسلم - قبيل النبوة بعمل من عمليات الطريقة، حيث تحنث في غار حراء : عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : (أول ما بدئ به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حجب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة ويتنزه لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء).³⁷

وبين الحافظ ابن أبي جمرة المتوفى سنة (699 هـ) في شرحه لهذا الحديث - فقال : في الحديث دليل على أن الخلوة عون للإنسان على تعبدته وصلاخ دينه، لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما اعتزل عن الناس وخلأ بنفسه، أتاه هذا الخير العظيم، وكل أحد امتثل ذلك أتاه

³⁷ رواه البخاري في صحيحه في باب بدء الوحي. البخاري. أبو عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن مغيرة بن بردية البخاري. صحيح البخاري. 2011م. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته وأيامه. دار النوادر. بيروت.

الخير بحسب ما قسم له من مقامات الولاية. وفيه دليل على أن الأولى بأهل البداية الخلوة والاعتزال، لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان في أول أمره يخلو بنفسه.³⁸

ومن هنا يتضح أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قبل نبوته كان قد مارس عملاً من أعمال الطرق الصوفية، كما مارسها بعد النبوة، حيث اعتكف - صلى الله عليه وسلم - في العشر الأواخر من رمضان، كما ذكره الشيخ عبد القادر عيسى، المتوفي سنة (1412هـ) وقال : "وما ترك الرسول - صلى الله عليه وسلم - هذه الخلوة، بعد أن خرج من الغار، فكان بعدئذ يخلو في العشر الأواخر من رمضان، وقد سماه الفقهاء اعتكافاً".³⁹

وكذلك داوم النبي - صلى الله عليه وسلم - ذكر الله تعالى ومراقبته لأتهما مفروضان عليه - صلى الله عليه وسلم، قال تعالى : (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْكَافِلِينَ)⁴⁰ فقد دل أمره سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة على أن قلب النبي - صلى الله عليه وسلم - دائم الذكر والمراقبة. فعلى هذا قال صلى الله عليه وسلم : حدثنا : عبد الله بن يوسف قال : أخبرنا : مالك ، عن سعيد بن

³⁸ أبي محمد عبد الله بن أبي جرة الأزدي الأندلسي. 1353هـ. بحجة النفوس. مصر. مطبعة الصدق الخيرية. ج1، ص : 27. عبد

القادر عيسى. حقائق عن التصوف. ص : 281.

³⁹ عبد القادر عيسى ، حقائق عن التصوف. ص : 251.

⁴⁰ سورة الأعراف : 205.

أبي سعيد المقبري ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن : أنه أخبره أنه سألت عائشة : فقلت : يا رسول الله أتنام قبل أن توتر فقال : (يا عائشة : أن عيني تنامان ولا ينام قلبي).⁴¹

والمراد من أن قلبه - صلى الله عليه وسلم - لا ينام أنه لا ينسى ذكر الله تعالى حتى ولو كان - صلى الله عليه وسلم - نائما لأنه معصوم.

وغيرها كثير من الآيات القرآنية التي تأمر المسلمين بذكر الله تعالى. وهناك أيضا توضيح كيفية الذكر وفضيلته والذاكرين وأوصافهم كما سيأتي بيانه في الباب التالي.

ومما يجدر الاهتمام من ذلك الأمر أنه - صلى الله عليه وسلم - قد امتثل بهذا الأمر وعلمه أصحابه - رضی الله عنهم أجمعين -.

وقال الشيخ عبد الوهاب الشعراوي المتوفى سنة (973هـ) : "وأما بيان مستند القوم في تلقينهم كلمة : "لا إله إلا الله" للمريدين، وبيان ما قاله الأشياخ في آداب الذكر، وبيان عزة التلقين، وبيان فوائد تتعلق بالذكر، فاعلم رحمك الله : أنه ورد تلقين رسول الله - صلى الله

⁴¹ عبد القادر عيسى. حقائق عن التصوف. ص : 251. صحيح البخاري. ج، 2. رقم : 0604.

عليه وسلم - لأصحابه كلمة "لا إله إلا الله"، جماعة وفردى وتسلسلت السلسلة من كل منها لجماعة، مع اتصال سندهم".⁴²

فيما يتعلق بالبيعة والتلقين الجماعي فقد مثل الشيخ عبد الوهاب الشعرائي بما رواه الإمام أحمد بن حنبل والبخاري وغيرهم بسند حسن : فعن يعلى بن شداد قال : حدثني أبي شداد بن أوس - رضي الله عنه - وعبد بن الصامت حاضر يصدقه قال : كنا عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : (هل فيكم غريب ؟ - يعني من أهل الكتاب - فقلنا : لا يا رسول الله، فأمر بعلق الباب فقال : ارفعوا أيديكم وقولوا : "لا إله إلا الله"، فرفعنا أيدينا وقلنا : "لا إله إلا الله"، ثم قال - صلى الله عليه وسلم - الحمد لله، اللهم إنك بعثتي بهذه الكلمة، وأمرتني بها، ووعظتني عليها الجنة، وإنك لا تخلف الميعاد، ثم قال - صلى الله عليه وسلم - : ألا أبشروا فإن الله قد غفر لكم).⁴³

أما البيعة والتلقين الفردي : قال الشيخ عبد الوهاب الشعرائي فلم أراه في شيء من كتب المحدثين التي اطلعت عليها ولكن روي سيدي يوسف العجمي شيخ السلسلة في رسالته بسنده المتصل عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال : (قلت يا رسول الله، دلني

⁴² الشعرائي. الإمام العلامة عبد الوهاب الشعرائي. 1988م/1408هـ. الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية. تحقيق طه عبد الباقي سرور. بيروت. مكتبة المعارف. ج، 1. ص : 27.

⁴³ عبد الوهاب الشعرائي. الأنوار القدسية. ص : 27. أخرجه الإمام أحمد والبخاري والبيهقي. ورجاله موثقون. كما في "مجمع الزوائد" ج، 19. ابن حنبل. أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني. 1419هـ/1998م. مسند أحمد بن حنبل. تحقيق السيد أبو المعطي التوريتي. بيروت. عالم الكتب. الطبعة الأولى. ج، 6. ص : 6.

على أقرب الطرق إلى الله عز وجل وأسهلها على العباد، وأفضلها عند الله تعالى، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يا علي، عليك بدوام ذكر الله عز وجل، سرا وجهرا، فكيف أذكر؟ قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : اغمض عينيك واسمع مني ثلاث مرات، ثم قل أنت، "لا إله إلا الله" ثلاث مرات، وأنا أسمع، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاث مرات "لا إله إلا الله" مغمضا عينيه رافعا صوته وعلي - رضي الله عنه - يسمع، ثم قال علي - رضي الله عنه - : "لا إله إلا الله" ثلاث مرات مغمضا رافعا صوته والنبي - صلى الله عليه وسلم - يسمع.⁴⁴

فيظهر من الروایتين السابقتين أن ذكر الله والمراقبة من تعاليم الطرق الصوفية، وإنهما أيضا من ضمن التعاليم التي علمها النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى أصحابه. وذكر في القرآن الكريم.

ثم أن الفئة الخاصة التي تعرف في التاريخ "بأهل الصفة" الذين كانوا يلزمون حياة العبادة في المسجد النبوي من جماعة الصحابة الذين يلزمون أعمال الطائفة. ومكانتهم عند الله عالية، رغم أن الكفار وكبار اليهود في المدينة يكرهونهم حتى ذكروا في القرآن الكريم. وقد أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بالدفاع عنهم وألا يتركهم رغم تهديد كبار اليهود والكفار. وقال تعالى عن ذلك في سورة الكهف : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ

⁴⁴ رواه الطبراني والبخاري بسند حسن. عبد الوهاب الشعراني. الأنوار القدسية. ص : 27.

يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا
وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا).⁴⁵

وروي سيدنا علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - عن حال الصحابة من أهل الصفة كما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - فمن هذه الروايات : قال أبو أراكة : صليت مع علي صلاة الفجر، فلما انفتل عن يمينه مكث كأن عليه كآبة حتى إذا كانت الشمس على حائط المسجد قيد أربعين ركعتين ثم قلب يده فقال : والله لقد رأيت أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - فما أرى اليوم شيئا يشبههم لقد كانوا يصبحون صفرا شعنا غبرا، بين أيديهم كأمثال ركب المعلى، قد باتوا لله سجدا وقياماً يتلون كتاب الله يتراوحن بين جباههم وأقدامهم، فاذا أصبحوا فذكروا الله ما فاءوا (أي تحركوا) كما يمدد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم حتى تنبل والله ثيابهم).⁴⁶

ومن رواية علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - عن عبادة أهل الصفة ودوام ذكرهم لله سبحانه وتعالى ظهر لنا أنهم يمثل جماعة أهل الطريقة الصوفية كما يعرف في العصور التالية. غير أن المسلمين في ذلك الوقت لم يسموهم بهذا المصطلح يعني الطريقة الصوفية.

⁴⁵ سورة الكهف : 28.

⁴⁶ ابن كثير. أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي. 1348هـ. البداية والنهاية. القاهرة. الكردستان الإسلامية. ج، 7. ص : 6. الأصبهاني. الشيخ الإمام الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني. 1351هـ. حلية الأولياء. القاهرة. ج، 1. ص : 76.

ما حكى عن ابن عمر - رضي الله تعالى عنهما - وعروة بن الزبير وجماعة - رضي الله تعالى عنهم - (من أنهم خرجوا يوم العيد إلى المصلى فجعلوا يذكرون الله تعالى فقال بعضهم : أما قال الله تعالى يذكرون الله قياما وقعودا فقاموا يذكرون الله تعالى على أقدامهم على أن مرادهم بذلك التبرك بنوع موافقة للآية).⁴⁷

فدلت هذه الرواية على أن الصحابة عملوا بأعمال الطريقة الصوفية، فإن فيها ما يدل على أنهم يذكرون الله في صلاة أو في جماعة من الناس. فهم يذكرون الله في أحوال كثيرة، ليس في حالة القعود فقط، بل وفي قيامهم، فهم يذكرون الله في كل الأوقات والأحوال.

فمن هنا نستخلص أن النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه لا يخلون من الأعمال الباطنية في الإسلام أو ما يعرف في هذا العصر بالطريقة أو من أعمال التصوف، وظهر ذلك من السيرة النبوية. فالنبي - صلى الله عليه وسلم - أكثر الناس ذكرا، وأشدّهم توكلا وزهدا وورعا، وأكثرهم شكرا وخوفا من الله تعالى، وأشدّهم سبيل ورضا وحباً لله تعالى. فكان - عليه الصلاة والسلام - بحق أنه إنسانا كاملا أو كامل الصفات ظاهرا وباطنا.

⁴⁷ الألوسي. محمود أبو الفضل الألوسي. 1425هـ. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. بيروت. دار إحياء التراث العربي. ج4، ص : 140.

المبحث الثاني : من القرن الثاني إلى القرن الرابع الهجري

الطريقة في القرن الثاني أصبحت عمل التابعين وتابعي التابعين كما ذكره ابن الخلدون في كتابه : "أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم".⁴⁸ حيث وجدت روايات كثيرة عن علاقة أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - مع التابعين، وكذلك التابعين بعضهم مع بعض في تربية وإرشاد في الطريقة.

وذكر الشيخ عبد المجيد بن محمد الخاني عن علاقة أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - مع التابعين في كتابه الخدائق الوردية : كما روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو عن سيدنا أبي بكر الصديق الأكبر - رضي الله عنه - المتوفى سنة (13هـ)،⁴⁹ وهو عن الصحابي الجليل سلمان الفارسي - رضي الله عنه - المتوفى سنة (34هـ)،⁵⁰ وهو عن جده العارف بالله تعالى قاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - المتوفى سنة (109هـ).⁵¹ وهو عن العارف بالله تعالى الإمام جعفر الصادق - رضي الله عنه - سبط سيدنا القاسم بن محمد بن

⁴⁸ ابن خلدون. العلامة الشيخ عبد الرحمن بن خلدون. 1406م/1986هـ. مقدمة ابن خلدون. بيروت. دار القلم. ج 1. ص 582.

⁴⁹ انظر الخاني. الشيخ عبد المجيد بن محمد الخاني. 1308هـ. الخدائق الوردية في أجلاء النقشبندية. محمد أفندي مصطفى. دار الطباعة العامة. ص: 90. ويبيغي أن تنبه بأن السلسلة التي ذكرها الشيخ محمد أمين الكردي في كتابه توافق لما ذكرها الشيخ عبد المجيد بن محمد الخاني في كتاب الخدائق الوردية. وذكر الشيخ عبد المجيد بأن تلك السلسلة الثالثة الصديقية. أو السلسلة الثالثة المشهورة بالصديقية. انظر الخاني. نفس المرجع. ص: 87. والسلسلة المذكورتان توافقتان لسلسلة السيد الأستاذ الإمام إسحاق بن محمد عارف. مصلى

(سوزاو) بانجكين دونج، وأووب، بمائج. وكل من تلك السلاسل الثلاثة تصل إلى الشيخ الخالد عثمان.

⁵⁰ انظر الخاني. نفس المرجع. ص: 96. توفي - رضي الله عنه - في عهد خلافة عثمان بن عفان - رضي الله عنه -.

⁵¹ انظر الخاني. نفس المرجع. ص: 97. توفي - رضي الله عنه - في مكان يسمى قديد يقع بين مكة ومدينة.

أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -⁵² فقد لقن أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - على تلميذه سلمان الفارسي⁵³، ولقن سلمان الفارسي على تلميذه القاسم بن محمد بن أبو بكر، ولقن القاسم بن محمد على تلميذه الإمام جعفر الصديق المتوفى سنة (148هـ)، ولقن الإمام جعفر الصديق على تلميذه موسى الكاظم، ولقن موسى الكاظم على تلميذه الإمام علي رضا، ولقن الإمام علي رضا على تلميذه معروف الكرخي المتوفى سنة (201هـ).⁵⁴

وفي رواية أخرى تنسب عن علاقة أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - مع التابعين حيث ذكر الشعراوي في كتابه الأنوار القدسية : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لقن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -، فكذلك لقن - رضي الله عنه - الحسن البصري المتوفى سنة (110هـ)، والحسن البصري لقن حبيباً العجمي، وحبيب العجمي لقن داود الطائي المتوفى سنة (165هـ)، وداود الطائي لقن معلوماً الكرخي المتوفى سنة (201هـ).⁵⁵

فمن هنا تبين أن التابعين وتابعي التابعين مارسوا أعمال الطرق الصوفية، فإن أكثرهم عاشوا في القرن الثاني من الهجرة. ومع ذلك ظهر فيه ما يفسر إلى عدم فهم بعض المسلمين حقيقة الطرق الصوفية. وظهر منهم المشاكل حتى اضطر العلماء إلى بيان مكانة الطريقة الصحيحة.

⁵² الكردي. مولانا العارف بالله العلامة الشيخ محمد أمين الكردي الإربلي الشافعي النقشبندي. 2006م. تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب. بيروت. دار الكتب العلمية. ص: 502.

⁵³ الخاني. الخدائق الوردية. ص: 90. قال الشيخ عبد المجيد على أنها سلسلة الثالثة الصديقية. انظر الخاني. ص: 87.

⁵⁴ الكردي. نفس المرجع. ص: 502.

⁵⁵ الشعراوي. الأنوار القدسية. ج، 1. ص: 30.

فظهر مسألة ما المراد بالصوفي وما المراد بالسني. فأجاب الشيخ أبو جعفر عن هذه المسألة فقال: "من عاش في ظاهر الرسول فهو سني، ومن عاش في باطن الرسول فهو صوفي". وأراد جعفر بباطن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أخلاقه الطاهرة واختياره للآخرة، ومن تخلق بأخلاق الرسول - صلى الله عليه وسلم -.⁵⁶

ولو كانت المشاكل الظاهرة متعلقة باصطلاح السني والصوفي لكن في ضمنها حقيقة الطرق الصوفية. لما من من أن الصوفية توافق الطريقة. وكذلك مكانة الطريقة الصوفية، لقد أصبحت مشكلة عند بعض المسلمين في هذا العصر. لماذا يحتاج المسلمون إلى الطريقة؟ هل لا يكتفون بالفقه فقط. أجب الإمام مالك - رحمه الله تعالى - : "من تصوف ولم يتفقه فقد توثق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق".⁵⁷

ونستخلص مما سبق من كلام الإمام مالك بن أنس - رحمه الله - وكذلك كلام الإمام أبي جعفر الصادق - رضي الله عنه - أن الطريقة في القرن الثاني من الهجرة تعرف بالتصوف بجانب المصطلحات الأخرى المستخدمة مثل علم الإيمان، وعلم الإحسان، وعلم الباطن، وعلم النافع وغيرها.

⁵⁶ الأصفهاني. حلية الأولياء. ج، 1. ص : 20.

⁵⁷ عبد القادر عيسى. حقائق عن التصوف. ص : 223.

وظهر بوضوح من كلام الإمامين سوء فهم المسلمين في القرن الثاني من الهجرة وضعف اهتمامهم بالحياة الزهدية. وهذا الضعف لا بد من ظهوره، لأن المسلمين في ذلك القرن يهتمون بزخرفة الدنيا ويميلون إلى التسلية كما قال ابن خلدون: "ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبولون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة".⁵⁸

ومع ذلك ما زالت الطرق الصوفية تشغل معظم التابعين وتابعي التابعين، لذلك ذكرت أسمائهم في الكتب وهم من المتصوفين. ومن هذه الكتب، الرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري المتوفي سنة (465هـ)، وكشف المحجوب للشيخ الهجويزي المتوفي سنة (465هـ)، وحلية الأولياء للشيخ الأصفهاني المتوفي سنة (430هـ)، وطبقات الكبرى للشيخ عبد الوهاب الشعراني المتوفي سنة (973هـ) وغيرها.

⁵⁸ ابن خلدون. مقدمة. ج1، ص: 582. انظر عبد القادر عيسى. حقائق عن التصوف. ص: 205.

ومن تلك الأسماء المشهورة حسن البصري المتوفي سنة (110هـ)، والإمام جعفر الصادق المتوفي سنة (148هـ)، والإمام محمد بن باقر المتوفي سنة (177هـ)، وأويس القرني، وإبراهيم بن أدهم المتوفي سنة (161هـ)، وأبو سهل بن البلخي المتوفي سنة (194هـ)، ورابعة العدوية المتوفي سنة (185هـ)، وفضيل بن عياض المتوفي سنة (187هـ)، ومعروف الكرخي المتوفي سنة (201هـ) وغيرهم.

ومن هنا نعلم أن مدارس الطرق الصوفية في صورتها الآن لم تظهر في القرن الثاني من الهجرة، رغم عمل التابعين وتابعي التابعين لتحقيقها. ثم صار بعض رجال الصوفية المشهورة كما ذكرنا أسماءهم مراجع تلامذتهم. وحينئذ فهم لا يشعرون أنهم كَوْنُوا جماعة معينة.

وفي القرن الثالث من الهجرة، زالت الطرق الصوفية شهرة في الدول الإسلامية، كما اشتهر اصطلاح التصوف في ذلك العصر. فهذا أمر طبيعي وذلك لوجود الأسباب التي تقتضي إلى اهتمام المسلمين وميلهم إلى الطرق الصوفية. ومن هذه الأسباب ظهور رجال الصوفية المجتهدين في نشر التصوف، ليس عن طريق اللسان فقط بل وعن طريق تأليف كتب أيضا، وكذلك عن طريق رسائل نثرا كانت أو شعرا. ومن هذه الأسباب تطور العلوم والفنون، وظهور صراع الفكر الديني يعني بين الفكر الإسلامي وغيره من الديانات. وظهور المذاهب في الفكر الإسلامي في فروع العلوم مثل علم الفقه، والتوحيد وغيره. فيحمل رجال التصوف إلى

إيضاح المصطلحات والمسائل في الطريقة.

فهذه الحالة هي التي تحيط الطرق الصوفية في هذا القرن كما ذكرها رجال الصوفية في العصور التالية في كتبهم. مثل الشيخ الهجویری المتوفى سنة (465هـ) في كتابه المسمى بكشف المحجوب، وعبود الشيخ أبو القاسم القشيري المتوفى سنة (465هـ) بوضوح في كتابه الرسالة القشيرية الحالة التي تحيط حركة الطريقة وتطورها في القرن الثالث.

وخلصتها يمكن أن نقول، أن جميع رجال التصوف في هذا القرن كانوا يجتهدون في تعليم وتبيين المسائل والمصطلحات والنظريات في علم التصوف. وأظهر دليل على ذلك هو ما فعله أحد رجال الصوف في هذا القرن، الشيخ عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي المتوفى سنة (243هـ) ببغداد حيث كتب عشرات المؤلفات تكلم فيها الجوانب المتعددة من علم التصوف أو الطريقة.

ومما وصلنا إلينا من مؤلفاته ما يلي : آداب النفوس، أحكام التوبة، رسالة التصوف، الخصال العشرة، الرد على بعض العلماء، شرح المعرفة وبذل النصيحة، محاسبة النفس، مختصر المعاني، المراقبة والمحاسبة، النصيحة إلى التائبين، الرسالة في الأخلاق، أخلاق الحاكم، التفكير والإعتبار، فهم السنن، بدء من أناب إلى الله، التوهم، الرعاية لحقوق الله، الأحوال والتنقل في العبادة ودرجات العابدين، رسالة المسترشدين، الوصايا، المسائل في أعمال القلوب والجوارح، كتاب العلم، فهم القرآن وغيره.

فدلت قائمة مؤلفات الشيخ المحاسبي بيقين على شدة تطور الطريقة وآثارها في القرن الثالث حيث لا يقل من فروع العلوم الأخرى في الإسلام.

وفي نفس الوقت فإن هذه الحقيقة ترد على دعوى أن الطريقة الصوفية ليست من الإسلام بل من آثار الأديان أخرى مثل النصراني واليهود وغيرهما. ودلت قائمة هذه الكتب أيضا على أن آثار الطريقة وتطورها مواز مع تطور فروع العلوم الأخرى في الإسلام.

فمع ظهور البطلين المشهورين في القرن الثالث، هما أبو يزيد البسطامي المتوفى سنة (261هـ)، وأبو القاسم الجنيد المتوفى سنة (297هـ)، أصبحت آثار الطريقة في هذا القرن أكثر انتشارا في المسلمين، حتي يقال أن جميع الطرق الصوفية الموجودة سلسلة تصل إلى هذين البطلين. فلا عجب أن علماء الصوف في القرن التالي يدجونهما ويرفعونهما ويضعونهما في مكانة عالية.

وذكر الشيخ الهجوري عن أبي القاسم الجنيد قال: شيخ المشائخ في الطريقة، وإمام الأئمة في الشريعة.⁵⁹

⁵⁹ الهجوري. أبو حسن علي بن عثمان الهجوري. 1974م/1394هـ. كشف المحجوب. دراسة ترجمة وتعليق د. اسعاد عبد الهادي قنديل. مصر. مكتبة الإسكندرية. ص : 340.

كان أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي -رضي الله عنه- من جلة المشائخ وأكبرهم حالا وأعظمهم شأنًا، إلى حد أن قال الجنيد رحمه الله : أبو يزيد منا بمنزلة جبريل من الملائكة.⁶⁰

وكان الشيخ أبو القاسم الجنيد تلميذ الشيخ أبي الحارث المحاسبي، فهذا دليل على عظمة منهج طريقة أستاذه وقاعدتها. وبجانب البطلين هنا أبطال التصوف المشهورون الذين لهم دور واسهام في مجال التصوف. منهم الشيخ أبو صالح حمدون بن أحمد القسار المتوفى سنة (271هـ)، وأبو زبد أحمد بن عيسى الخراز المتوفى سنة (279هـ)، وسهل بن عبد الله التستري المتوفى سنة (283هـ)، وأبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي المتوفى سنة (285هـ)، وأبو حسن أحمد بن محمد النوري المتوفى سنة (295هـ) وغيرهم.

فلذلك فلا إشكال أن القرن الرابع الهجري أول عصر ظهر فيه مذاهب الطرق الصوفية ومدارسها.

وجملة المتصوفة اثنتا عشرة فرقة، منهم فرقتان مردودتان، وعشر مقبولة.⁶¹ وصرح الشيخ الهجويري المتوفى سنة (465هـ) أن في هذا العصر إحدى عشر مذهبًا أو طريقًا صوفيا والعشرة منها صحيحة ومقبولة واثنتان باطلتان مردودتان : أما الفرقتان المردودتان، فواحدة منهما :

⁶⁰ الهجويري. نفس المرجع. ص : 317.

⁶¹ الهجويري. المرجع السابق. ص : 343.

الحلولية المنسوبة إلى الحلول والامتزاج، وإليهم ينتمي السالمية والمشبهة.⁶² فالفرقتان الباطلتان، أولاهما "الحلولية" فهي فرقة تعتقد أن الله يتحد مع الشيء الحسن مثل شخص حسن وجه ويحله. ورائد تلك الفرقتين رجلان من الفارس أحدهما أبو سلمان الدمشقي وهو من الحلب في الفارس. والأخرى "السالمية" ولم يعرف اسم مؤسسها.

وأما عشر فرق المقبولة، فكما يلي :

- 1- المحاسبية : منسوبة إلى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي المتوفى سنة (243هـ).
- 2- القصارية : منسوبة إلى أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمار القصار المتوفى سنة (271هـ).
- 3- الطيفورية : منسوبة إلى أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي المتوفى سنة (261هـ).
- 4- الجنيدية : منسوبة إلى أبو القاسم الجنيد بن محمد المتوفى سنة (291هـ).
- 5- النورية : منسوبة إلى أبو حسن بن محمد بن محمد النوري المتوفى سنة (295هـ).
- 6- السهلية : منسوبة إلى سهل بن عبد الله التستري المتوفى سنة (282هـ).
- 7- الحكيمية : منسوبة إلى أبو عبد الله محمد بن علي الحاكم الترمذي المتوفى سنة (285هـ).
- 8- الخرازية : منسوبة إلى أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز المتوفى سنة (279هـ).

⁶² الهجويزي. نفس المرجع. ص : 343.

9- الخفيفة : منسوبة إلى أبو عبد الله محمد بن الخفيف المتوفى سنة (371هـ)

10- السارية : منسوبة إلى أبو العباس القاسمي بن القاسم بن المهدي السيار المتوفى سنة (342هـ).

وهؤلاء جملة من المحققين وأهل السنة والجماعة.⁶³ وعند الشيخ الهجویری أن كل الطرق له منهجية ونظرية الخاصة تختلف عن غيره ومع ذلك فإنهم لا يختلفون في أصول الدين والتوحيد. فهذه دليل على انتشار تأثير الصوفية بصورة واسعة في ذلك الزمان.

ورغم ذلك، فإن انتشار التصوف وتطوره في ذلك العصر مرحلة لاحقة للتصوف في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه من بعده. وبكلمة آخر، فإن المحاولات التي قام بها المسلمون وبالاخص رجال التصوف في نشر فهم الطريقة وتطبيقها أنشطة ومحاولات لإحياء الطريقة ليفهم المسلمون في ذلك العصر حقيقة الطريقة بفهم جيد صحيح، وكذلك المسلمون في العصور اللاحقة.

ويمكن أن يقال : بأن مسائل الطريقة التي يصعب فهمها أو لا تفهم بشكل واضح في القرن الثالث، أصبحت واضحة قريبة إلى الفهم في القرن الرابع. فالجوانب والمسائل المتعلقة

⁶³ الهجویری. المرجع السابق. ص : 343.

بالمجاهدة، والتدريب الروحي (الرياضة)، والأحوال، والمقامات، والمسائل المتعلقة بتلك الجوانب، لقد فاز رجال التصوف في ذلك العصر محلها وشرحها.

وإذا وجدت عشرة مذاهب للطرق الصوفية في القرن الثالث من الهجرة كما ذكرنا آثارها وسعة انتشارها ففي القرن الرابع أشد أثرا وانتشارا طبعاً، فآثار عشرة شيوخ الطرق الصوفية المذكورين شجعت تلاميذهم لمحاولة نشر الطرق الصوفية بشكل مستمر.

مثال ذلك، الشيخ أبو العباس أحمد بن سهل الأدمي، أحد تلاميذ الشيخ أبو القاسم الجنيد⁶⁴ المشهور فقد نشر طريقة شيخه في الجزيرة العربية، ونشر أبو بكر الشبلي المتوفى سنة (334هـ) طريقة شيخه الشيخ أبو القاسم الجنيد في بغداد بجد واجتهاد. والشيخ أبو علي بن محمد بن القاسم الروذباري المتوفى سنة (322هـ) تلميذ الشيخ أبو القاسم الجنيد.

وقد نشر الشيخ أبو الحسن النوري والشيخ بن الجلاء طريقة شيخيهما في مصر.⁶⁵ وقد نشر أبو محمد بن عبد الله بن محمد المرتعش المتوفى سنة (328هـ) وهو تلميذ أبو القاسم بن الجنيد الطريقة بجد في العراق،⁶⁶ والشيخ أبو بكر بن محمد بن علي بن جعفر الكتاني المتوفى سنة (322هـ) وكان تلميذاً للجنيد وأبو الحسن النوري وكان مأكثاً بمكة له مكانة مهمة عند

⁶⁴ الهجويزي. المرجع السابق. ص : 361.

⁶⁵ الشعرائي. عبد الوهاب الشعرائي. 2006م. طبقات الكبرى. بيروت. دار الكتب العلمية. ص : 91.

⁶⁶ الشعرائي. المرجع السابق. ص : 90 - 91.

الشيخ عبد الوهاب الشعرائي⁶⁷ وقد ذكر الشيخ المرتعش بأنه سراج ينير أرض الحرم.⁶⁸ فلا يشك أن الطريقة في عصره لها أثر كبير في مكة المكرمة. وفيها رائدان للطريقة الشيخ الكتاني، تلميذان للشيخ الجيند هما الشيخ يعقوب اسحاق بن محمد النهراجوري المتوفى سنة (330هـ) والشيخ علي بن محمد المزاني المتوفى سنة (329هـ).⁶⁹

بجانب هؤلاء الرواد هنا رواد آخرون كثيرون. منهم أبو العباس بن القاسم المهدي المتوفى سنة (342هـ) في منطقة مور، وأبو بكر بن داود الدينوري المتوفى بعد سنة (350هـ) في الشام، وأبو عمرو اسماعيل بن فاجد السلیمان المتوفى سنة (366هـ) وهو جد الشيخ عبد الرحمن السليمي، وأبو الحسن البمانجي المتوفى سنة (348هـ) في الخراسان، وأبو عبد الله محمد بن الخفيف لدي المتوفى سنة (371هـ) في الشيراز. وأبو الحسن البندر بن الحسين الشيرازي المتوفى سنة (353هـ) في الأذربيجان، وأبو العباس أحمد بن الدينوري المتوفى سنة (340هـ) في النيسابور، وأبو عثمان سعيد بن سلام المغربي المتوفى سنة (373هـ) وأبو القاسم إبراهيم بن محمد السرهندي المتوفى سنة (367هـ) في الخراسان، وأبو الحسن علي بن إبراهيم الحصري المتوفى سنة (371هـ) في بغداد، وأبو عبد الله أحمد بن عطاء بن أحمد الروضاهاري المتوفى سنة

⁶⁷ الشعرائي. نفس المرجع. ص: 94 - 95.

⁶⁸ الشعرائي. نفس المرجع. ص: 94 - 95.

⁶⁹ الشعرائي. نفس المرجع. ص: 95 - 96.

(379هـ) ابن لأخت الشيخ علي الروضاباري، وأبو بكر بن أحمد النيسابوري المتوفى سنة (360هـ) وغيرهم.⁷⁰

فجميع الأبطال المذكورة صورت بوضوح مدى شدة آثار الطرق الصوفية وعظمتها في هذا القرن الرابع الهجري. فدورهم في انتشار الطريقة وتطبيقها مشهور. والتاريخ الحي مع انشطتهم في ميدان الطريقة ظاهرة في كتب التصوف.

وبجانب آثار الطريقة وتطورها التي أصبحت أكثر انتشارا بين المسلمين في تلك القرن الرابع، ففيه أيضا الصراع الشديد بين الفقهاء والتصوفين، فحكم الإعدام على أبو المغيث الحسين بن منصور الحلاج بالبغداد، ولو كان بموافقة بعض رجال التصوف لكن هذا الحكم واقعة تاريخية مهمة تدل على الصراع والخلاف بين التصوفين والفقهاء في تلك القرن الرابع الهجري.

وأيضا ألف فيه كثير من كتب التصوف ورغم ذلك فإن أكثر هذه الكتب لا تصل إلينا فإن بعضها بفقودة كما أن بعضها مازالت مخطوطة في المتاحف والمكتبات. ومن الكتب التي تصل إلينا "قوت القلوب" للشيخ أبو طالب المكي المتوفى سنة (386هـ) و"اللمع" للشيخ

⁷⁰ الشعرائي. المرجع السابق. ص : 97 - 103.

أبو نصر عبد الله بن علي الطوسي المتوفى سنة (378هـ) و"طبقات الصوفية" للشيخ عبد الرحمن السلمي المتوفى سنة (412هـ).

ورغم آثار الطريقة في القرن الرابع أكثر انتشارا، ورجاها مجدون وكثرت كتب التصوف لكن فهم المجتمع الإسلامي لمعنى الطريقة غير واضحة، تطبيقهم للطريقة غير صحيح.

ولذلك بين الشيخ أبو الحسن البسنجي المتوفى سنة (348هـ) أحد أبطال التصوف في القرن الرابع وقال : التصوف اليوم اسم بلا حقيقة، وقد كان من قبل حقيقة بلا اسم.⁷¹

المبحث الثالث : بعد القرن الرابع الهجري

يرى الشيخ أبو القاسم القشيري أن أكبر الطريقة في الأمة الإسلامية بعد القرن الرابع الهجري ضعفت. فقال : إن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم، ولم يبق في زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم،⁷² كما قيل :

وأرى ساء الحى غير نساىهم

أما الخيام فإنها كخيامهم

⁷¹ على بن عثمان الهجويزي. كشف المحجوب. ص : 239 . وطبقات الصوفية ص : 459.

⁷² أبو القاسم القشيري ، الرسالة القشيرية. دار الكتب، بيروت. ص: 2.

حصلت الفترة⁷³ في هذه الطريقة..، لا، بل إندرت⁷⁴ الطريقة بالحقيقة مضى الشيوخ الذين

كان بهم اهتداء، وقل الشباب الذين كان لهم يسيرتهم وستهم اقتداء، وزال الورع وطوى

بساطه، واشتد الطمع وقوى رباطه، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة.⁷⁵

ويمكن أن يكون ضعف آثار الطريقة وفقدانها عن رجاله الكبار في ذلك العصر بسبب الدنيا

وزخارفها، فإن الشيخ أبو القاسم القشيري صرح بأن كثيرا من الناس في ذلك العصر

يتساهلون في الصوم والصلاة، يغرقون في بحر الغفلة ويتبعون الشهوات ويشغلون بالسوق

والمرأة والسلطان.

وهناك سبب آخر لضعف آثار الطريقة في ذلك العصر وهو الدعاية، والدعوى، والفتنة التي

يبحثها المنكرون على الطريقة وأعلامها.

وكان الشيخ الهجويري المتوفى سنة (465هـ) وهو معاصر مع الشيخ أبو القاسم القشيري نبه

على المنكرين على الطريقة الصوفية فقال : ما زادكم من انكار التصوف ؟ فإن كانوا ينكرون

⁷³ التراخي والتفريط في الطريقة الصوفية.

⁷⁴ زالت وبخيت، يقصد أن الطريقة الصوفية في الحقيقة قد زالت معالمها من نفوس الكبريين بعد أن غلب عليهم قلة المبالاة وعالجتهم الشريعة.

⁷⁵ القشيري. العلامة العارف بالله أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري السابوري. الرسالة القشيرية في علم التصوف.

1413هـ/1993م. تحقيق معروف مصطفى زريق وعلي عبد الله. بيروت. المكتبة العصرية. ص : 2.

الاسم المجرد فلا ضير، لأن المعاني تكون في حق التسميات غريبة، وإن كانوا ينكرون عين هذه المعنى، يكونوا قد أنكروا كل شريعة النبي -عليه الصلاة والسلام- وخصاله المحمودة.⁷⁶

فبناء على ذلك ألف الشيخ الهجویری وأبو القاسم القشيري كتاب كشف المحجوب والرسالة القشيرية. فمن أهدافهما لتكون الطريقة أقرب إلى الفهم، ولتوضح أن لها أصلاً صحيحاً. فمثل هذه المحاولة تستطيع هدم فتنة منكري الطريقة ودعاويهم.

وأدرك الإمام الغزالي المتوفى سنة (505هـ) أهمية الطريقة في أواخر حياته، وذلك بعد فترة طويلة كان فيها من العلماء الكبار الذين يدرسون في المدرسة النظامية ببغداد. فهذه الواقعة تشير إلى أن أكثر العلماء وفي مقدمتهم الفقهاء لا يعرفون كثيراً عن حقيقة الطريقة. وبعد أن كان الإمام الغزالي مكباً على الطريقة أدرك بأن الطريقة قد ضعفت وإن لم تمت، فلذلك ألف الكتب والرسائل عن الطريقة وذلك لإحياء العلوم التي كادت أن تموت. وكتابه المشهور "إحياء علوم الدين" أوضح لنا همته العالية لإحياء العلوم التي كانت ميتة في ذلك القرن، لتكون تلك العلوم أقرب إلى فهم المجتمع الإسلامي وتطبيقها.

ورغم ضعف آثار الطريقة في هذا القرن الخامس، فإن محبي الطريقة ورجالها ما زالوا موجودين، حاولي لنشرها، وفي مقدمتهم التلاميذ الذين خلفوا شيوخهم في القرن الرابع.

⁷⁶ الهجویری. كشف المحجوب. ص : 239.

ومن رواد الطريقة المشهورين الذين ذكر الهجويري أسماءهم في كتابه كشف المحجوب ما يلي :

أبو العباس أحمد بن محمد القصاب (المتوفى آخر القرن الرابع الهجري)، أبو علي الحسن بن محمد علي الدقاق المتوفى سنة (405هـ)، أبو الحسن علي بن أحمد الخرقاني المتوفى سنة (425هـ)، أبو عبد الله محمد بن علي المعروف بالداستاني المتوفى سنة (417هـ)، وأبو الفضل محمد بن الحسن الختلي المتوفى سنة (431هـ)، وأبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري المتوفى سنة (465هـ)، أبو القاسم علي الجرجاني المتوفى سنة (450هـ)، وأبو أحمد المظفر بن أحمد بن حمدان المتوفى سنة (435هـ) وغيرهم.⁷⁷

وما زالت مذاهب الطرق الصوفية في القرن الخامس فما بعده موجودة معروفة باسم الشيوخ الذين كانوا هم أئمة في إحيائها فمن الشيوخ المشهورين ما يلي :⁷⁸

- 1- القاديرية : منسوبة إلى الشيخ عبد القادر بن أبي صالح الجيلاني، المتوفى سنة (562هـ).
- 2- الرفاعية : منسوبة إلى الشيخ أحمد بن علي الرفاعي المتوفى سنة (578هـ).
- 3- الكبروية : منسوبة إلى الشيخ نجم الدين الكبري المتوفى سنة (618هـ).

⁷⁷ الهجويري. المرجع السابق. ص : 375.

⁷⁸ الهجويري. نفس المرجع. ص : 375.

4- السهروردية : منسوبة إلى الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر السهروردي، المتوفى سنة (623هـ).

5- الجسنية : منسوبة إلى الشيخ معين الدين حسن جستي، المتوفى سنة (633هـ).

6- الشاذلية : منسوبة إلى الشيخ أبو حسن علي الشاذلي، المتوفى سنة (656هـ).

7- النقشبندية : منسوبة إلى الشيخ محمد بن محمد بهاء الدين النقشبندي، المتوفى سنة (791هـ).

8- الياسوية : منسوبة إلى الشيخ أحمد بن إبراهيم بن علي الياسي.

وبجانب هذه الطرق هناك عشرات بل مئات الطرق الأخرى، كلها من اجتهادات المشايخ الذين كانوا أئمة للطرق ويعرفون بالشيخ المجتهد.

الفصل الثالث : مضمون الطريقة الصوفية

لقد بينا أن الطريقة هي السبيل الذي يوصل الشخص إلى درجة الإحسان وهو أن يعبد الله وقلبه شاهد على حقيقة وجود الله تعالى وعظمته وكماله.

⁷⁹ H. A. R. Gibb and J. H. Kramers. *Shorter Encyclopedia of Islam*. 1953. New York Cornell University Press..573.

فعلى هذا يتضمن تعريف الطريقة ومعناها العام أو الواسع على ثلاثة العلوم الأساسية الإسلامية التي تصدر من ثلاثة أسس لدين الإسلام فهي الإيمان والإسلام والإحسان كما ذكر في حديث رواه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وفيه قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).⁸⁰

وفيه قوله - صلى الله عليه وسلم - "أن تعبد الله". فلا شك أن عبادة الله لا بد أن تكون على أساس الإيمان والإسلام فعلى هذا، العبادة تدبر علم التوحيد وعلم الفقه. فقد دل الحديث على أن العبادة ترتقي إلى حالة روحية حتى كأن العابد يرى الله ويشاهده. وهذه الحالة أو التجربة الروحية هي الإحسان وهي التي تعرف فيما بعد بالطرق.

وقال العارف بالله الشيخ ابن عجيبة في شرح الحكم العطائية : نسبة التصوف من الدين نسبة الروح من الجسد، لأنه مقام الإحسان الذي فسر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لجبريل : (أن تعبد الله كأنك تراه)، إذ لا معنى له سوى ذلك، إذ مداره على مراقبة بعد مشاهدة، أو مشاهدة بعد مراقبة، وإلا لم يقم له وجود ويظهر له موجود فافهم.⁸¹

⁸⁰ رواه مسلم. النووي. أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي. 1392هـ. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. بيروت. دار إحياء التراث العربي. الطبعة الثانية. ج، 1. ص : 37-38.

⁸¹ ابن عجيبة. العارف بالله الشيخ أحمد بن محمد بن عجيبة الحسيني. 1985هـ. إيقاظ الهمم في شرح الحكم. القاهرة. دار المعارف. ص:

فبناء على هذه الواقعة السابقة يتضح أكثر أن تعريف الطريقة ومعناها يشتمل على تلك العلوم الثلاث. فلذلك نجد كثيرا من كتب التصوف تتكلم بالتفصيل عن ثلاثة علوم أساسية في الإسلام، مثل كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، وسير السالكين للشيخ عبد الصمد القلمباجي وقوت القلوب للشيخ أبو طالب المكي.

ومع ذلك فإن الطريقة بمعناها الخاص يتضمن على الجانب الباطني فقط. ومضمونها المتعلقة بالجانب الباطني عادة مكتوبة في كتب علماء التصوف. فهي كالتالية :

- 1- البيان عن ذكر الله والمراقبة وما يتعلق بهما مثل تلقين الذكر والبيعة، وكيفية الذكر، والرابطة، ومراتب الذكر، مراتب المراقبة وغيرها.
- 2- البيان عن الصفات المدحومة ليتحلى عنها مثل الرياء، والعجب، والبخل، والحسد، والحقد، والسب، والفتنة، وسوء الظن، وكثرة الأكل والشرب، وكثرة الكلام والنوم. وكذلك الصفات المحمودة، ليتحلى بها مثل التوبة، والصبر، والشكر، والرجاء، والخوف، والزهد، والتوكل، والرضا، وذكر الموت، والهمة وغيرها. والتخلق بهذه الصفات الحميدة يسمى بالتحلي.

- 3- البيان عن وحدانية الله في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه على منهج اعتقاد أهل السنة والجماعة والهدف منه هو ترقية علم التوحيد إلى المعرفة الحقيقية. وهذا يحصل بدوام

الذكر والمراقبة.⁸² فبذكر الله والمراقبة وصل السالك إلى المكاشفة، وبالتخلي عن

الصفات المذمومة والتخلي بالصفات الحمودة حصل على التزكية.⁸³

4- البيان عن معنى الطريقة، وموفق سلسلة المرشد أو سلسلة الشيخ التي توصل مع شيخه

حتى تصل إلى النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - ليتحقق أن طريقته معتبرة بعيدة

عن التحريف. وعند علماء التصوف أن في السلسلة المتصلة إلى النبي - صلى الله

عليه وسلم - بركة.⁸⁴

5- البيان عن أحكام المسائل التي تتعلق بالطريقة مثل حكم تعلمها، وعملها، وحكم

طلب المرشد أو شيخ الطريقة وغيرها. وأيضاً عن فضائل الطريقة وتطبيقها وغيرها.

فمثلاً حكم تعلمها فقد بينته كتب التصوف بالتفصيل.⁸⁵

6- البيان عن المجاهدة في سبيل الله وعقابها التي لا بد من مواجهتها، والأعداء الذين

يصدون عن طريقها وفي مقدمتهم الشيطان، والنفوس، والدنيا والناس الذين كانوا

حوله. وكذلك البيان عن كيفية مواجهة هذه العقبات

⁸² الفلمباني. الشيخ عبد الصمد الفلمباني. بدون تاريخ. سير السالكين في طريقة السادات الصوفية. عيسى البابي الحلبي. دار إحياء

الكتب العربية. ج، 1. ص: 42.

⁸³ أي تزكية النفس عن الصفات المذمومة

⁸⁴ ابن عجيبة. إيقاظ الهمم. المرجع السابق. ج، 1. ص: 79.

⁸⁵ ابن عجيبة. إيقاظ الهمم. نفس المرجع. ص: 11.

7- البيان عن تجربة روحانية مثل الغفلة، واليقظة، والفناء والبقاء بالله، وما يتعلق بالكشف، والكرامة وغيرها.

8- البيان عن بجانب آداب السالك مثل الآداب مع الشيخ، ومع نفسه، وزملائه، ومجتمعه، والآداب مع الله تعالى ظاهراً وباطناً وغيرها.

وبجانب المسائل المذكورة السابقة هناك مسائل تنشأ من تطبيق الطريقة، مثل المسائل التي تتعلق بالشبهات التي تقول بأن الطريقة مصدر أساسي للتعقائد الباطلة. وهذه الفتنة بثها الجهلاء والأذكياء الذين لم يتعلموا الطريقة وتطبيقها، وغيرها من الشبهات. فهذه المسائل ستتناولها الأبواب التالية - إن شاء الله -.

الفصل الرابع : مصادر الطريقة الصوفية

الطريقة عند علماء التصوف، الطريق إلى الله وكيفية التقرب إلى الله تعالى بكل إيمان وإخلاص. فعلى ذلك فكانت الطريقة لا بد من أن يبنى على أساس صحيح وحق، في نور هداية الله تعالى، وتحت إرشاد وحي من الله تعالى في القرآن والسنة. فهي لا تخرج عن تعاليم الإسلام وشريعة الله تعالى، فمصدرها رسالة الرسول - صلى الله عليه وسلم -.

فسيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ظاهرا وباطنا، سرا وعلانية ترجمة صحيحة للسعي إلى الله تعالى، ثم طبق الصحابة والتابعون وتابعوا التابعين هذه السيرة ثم طبقها من بعدهم آخذين بسابقتهم قدوة لهم بكل إحسان، فهم المؤمنون، والصالحون والعلماء العاملون وورثة الأنبياء. فيتضح أن مصدر الطريقة الصوفية في علم التصوف هو القرآن والسنة، أما كون سيرة أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والعلماء ورثة الأنبياء أصبحت من مصادر الطريقة فإنها لا تخرج عن القرآن والسنة.

ويتيقن المتعمقون للطريقة وعاملوها أن للطريقة مصدران. القرآن وسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وقال الشيخ أحمد البغدادي التوفي سنة (297هـ) يقول: "علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة من لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في علمنا هذا".⁸⁶

قال الشيخ زروق -رحمه الله- "استمداده: (هو) (علم الصوف) مستمد من الكتاب والسنة وإلهامات الصالحين وفتوحات العارفين".⁸⁷

وقال سهل بن عبد الله التستري المتوفى سنة (282هـ): "أصولنا سبعة أشياء: التمسك بكتاب الله تعالى، والافتداء بسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم -، وأكل الحلال، وكف

⁸⁶ القشيري. الرسالة القشيرية. المرجع السابق. ص: 19.

⁸⁷ ابن عجية. إيقاظ الهمم. المرجع السابق. ص: 20.

الأذى، واجتنب الآثام، والتوبة وأداء الحقوق.⁸⁸ وحذر الشيخ عبد الوهاب الشعراني على من رد التصوف وأنكره. وذلك لأن الأدلة على صحة التصوف لا ترد ولا تجادل. بقوله :
 "وإياك أن تقول طريق الصوفية لم يأت بها كتاب ولا سنة فإنه كفر فإنها كلها أخلاق محمدية سداها ولحمتها منها".⁸⁹

أما اعتقاد بعض الناس بأن مصدر الطريقة مقتصرة على القرآن والسنة فبالنظر إلى المبادئ الأساسية.⁹⁰ ونخلصه أن التقوى مبدئ أساسي، ولتطبق التقوى صحيحا واستقامة فعلى عامله التمسك بالقرآن والسنة. ورغم ذلك فليس جميع عاملي الطريقة عارفين، ومؤهلين لفهم القرآن والسنة. فعلى ذلك لا بد لعامل الطريقة من التمسك بعقيد أهل السنة والجماعة في العقيدة، وفي الفقه التمسك بإحدى المذاهب الأربعة⁹¹، ذلك لتكون طريقته على أساس القرآن والسنة.

إن طريقة توصل الإنسان إلى درجة الاحسان. وقد تكلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عنه . بأن من وصل على درجة الإحسان وقام في مقام العبودية فكأنه يرى الله،⁹² فإن لم

⁸⁸ السلمي. للإمام أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى السلمي. 1986م/1406هـ. طبقات الصوفية. تحقيق نور الدين شريعة. القاهرة. مكتبة الخانجي. ص : 210.

⁸⁹ الشعراني. عبد الوهاب بن أحمد الشعراني. 1393هـ/1973م. العهود الحمديدية. مصر. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاد. ج، 1. ص: 2.

⁹⁰ سنتناول هذا المسألة في الموضوع اللاحق "مبادئ الطريقة الصوفية".

⁹¹ الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي.

⁹² الفناء.

يكن يراه فإنه يشعر بأن الله يراه،⁹³ وللحصول على درجة الإحسان فلا بد من التمسك بالقرآن والسنة.

ومن الناحية الأخرى فإن الطريقة تجمع بين الشريعة والحقيقة والمعرفة، ولا يمكن أن تقوم الطريقة هذا العمل إلا لم تؤسس على القرآن والسنة الصحيحة. لأهمية هذين المصدرين، علمنا بعض علماء التصوف صيغة المناجاة الخاص : "إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي". فهذه الكلمة ترشد إلى أهمية نية المرید وقصدهم وهي ابتغاء مرضاة الله تعالى وحده.

ويفهم من تلك الحقيقة بوضوح بأن الطريقة الصوفية من الشريعة لأنها سبيل إلى الله تعالى بالتخلق بالأخلاق الحميدة وأخلاق القرآن.

فإن سيدنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صوفي كامل، والإمام الأكبر للطرق الصوفية وقدوة لهم. وظفر أصحابه -صلى الله عليه وسلم- في الدنيا حتى أقاموا الدولة الإسلامية القوية بسبب اتصافهم بصفات الصوفية. وظفر أصحابه -صلى الله عليه وسلم- حيث أعرضوا وجوههم عن الدنيا إلى الله وحده. فولوا وجوههم إلى الخالق. فالدنيا عندهم أمر هين، وأدني من الآخرة الأهم. فلذلك فهم فنجوا في الدنيا والآخرة. فمن ابتغى رضا الله وحده ظفر بظفر عظيم.

⁹³ أي البقاء بالله.

فعلى هذا، فالصوفي الحقيقي هو المجاهدة في تزكية النفس وتطهير القلب، ومجاهدة النفس لإعلاء دين الله. فالمتصوفون هم متواضعون، أذلة على المؤمنين أشداء على الكفار ولا يخافون لومة لائم في إقامة الحق.

فليس من الخطأ أن يقال : بأن الطريقة هي حياة الزهد والقناعة والشكر والطاعة والعبادة والرحمة والتضحية والجهاد في سبيل الله، والمجاهدة لابتغاء مرضاة الله في إقامة الحق. فمن ضل عن هذا الطريق، فقد خرج عن طريق أهل الصوفي الصحيح.

فهذه جملة من الآيات القرآنية التي تستخرج من مصادر الطريقة، وهدي من ذكرها ليس الحصر على جميع الآيات القرآنية والأحاديث التي يتمسكها المتصوفون. لكن ذكرت بعضها كمثال لاستنباطهم. فأول طريق إلى الله للسالك هو تزكية النفس مما سوى الله تعالى. قوله تعالى :
(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ).⁹⁴

ومن الآيات القرآنية التي صورت طريق الفقه الصوفي، كقوله تعالى : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ).⁹⁵
وقال تعالى أيضا : (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ).⁹⁶

⁹⁴ سورة العنكبوت : 29.

⁹⁵ سورة البقرة : 186.

⁹⁶ سورة البقرة : 115.

فدلت هذه الآيات، أن الله سبحانه وتعالى قريب للإنسان في أي وقت وحين، فأينما ولي الإنسان وجوههم تجد وجه الله العظيم. وصدق الله لكلماته تعالى بأنه قريب لعباده مستجيب للدعوة الداعي إذا دعاه.

أمر الله سبحانه وتعالى الناس بدوام الذكر والإيمان به فينالوا هدايته. فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان، عالم بقلوبهم، قريب لعباده. وقال تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ).⁹⁷ فهذه الآية، جاهد أهل الصوفية للتقرب إلى الله امتثالاً لأمره تعالى. قال سبحانه : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ . وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ).⁹⁸

فالمتصوفون جعلوا تجربة طريقتهم كما أرادت الآيات السابقة فأصبح طريقتهم حياتهم. فمن أقام الصلاة، وصبر على ما أصابه من الحزن بكل إخلاص ظهر بدو حبه روحانية عليه.

⁹⁷ سورة ق : 16.

⁹⁸ سورة البقرة : 163 – 157.

وكذلك، تمسك المتصوف في طريقتهم بالآيتين من سورة فصلت، قال تعالى: (سُنُّرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ).⁹⁹

فأخبرت الآيتان على قدرة الله سبحانه وتعالى. ولو كان هناك من لا يزال أن يشك من وجوده تعالى ولقائه. ولكن المتصوفين دائماً يشعرون بأن الله قريب منهم ويتيقنون بأنهم المختارون من عباده ناظرين له يوم القيامة. فليس هذه محل شك و ريبه. فلذلك حاول المتصوفون احضار هذا الشعور في طريقتهم في رحلتهم الروحية للوصول إلى معرفة الله. قال تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا فِرْعَوْنَ سَلْحَ طَائِفَةٍ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ).¹⁰⁰

فقد جعل المتصوفون لفظ "طائفة" في الآية مصدرهم. وهذا اللفظ هو الذي دل على "الطريق" أو "الطريقة" والمراد منه هو دوام العبادة للوصول إلى الله عز وجل بجانب ترك الدنيا وزخارفها. والزهد عن لذة المال والجاه ، والعناية لعبادة الله. كما قال ابن خلدون البيان عن التصوف : وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا

⁹⁹ سورة فصلت : 53 - 54.

¹⁰⁰ سورة المؤمنون : 17.

وزيتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة.¹⁰¹

فلا بد للطريقة من أن تصبغ بصبغة الإسلام وعلى منهج ديني ومن أرادها فعليه أولاً بمعرفة تطور الدين، ومعرفة تعاليم الدين الإسلامي.

وقد بين الإمام الشعراني¹⁰² وساج الطوسي ومحمد الفقي بأن الطريقة لا بد من أن لا تخالف تعاليم الإسلام المقدس ولا بد من أن تكون على أساس الكتاب والسنة. بل الهدف الذي تسعى إليه الطريقة واضح وهو تطبيق الشريعة الإسلامية بطريقة منهجية للوصول إلى حقيقة الحياة الصحيحة. لقد صرح الشيخ محمد أحمد الدندراوي : طريقتي التمسك بكتاب الله وسنة رسول الله.¹⁰³

فدلت مما سبق بيانه بأن مصدر الطريقة من القرآن والسنة، حيث كانا مرشدا للمتصوفين وأساسهم الأهم. فجميع عاداتهم، وتجربتهم ومبادئهم مستمدة إلى كلام الله سبحانه وتعالى وأحاديث رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

¹⁰¹ ابن خلدون. مقدمة. ج، 1. ص : 582.

¹⁰² الشعراني. عبد الوهاب الشعراني. 2005م. لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحديث بنعمة الله على الإطلاق. بيروت. دار الكتب العلمية. ص : 4.

¹⁰³ أحمد بن محمد سعيد لينغجي. دون التاريخ. المدخل إلى الطريقة الأحمدية. كوالا لمفور. ص : 22.

لقد استند المتصوفون كثيرا إلى الآيات القرآنية، فكانت مصادر طريقتهم كما بينا. فمن هنا نستنتج بأن الطريقة هي نتيجة الآيات التي أنزلها الله سبحانه وتعالى، بالاعتماد على اجتهادات الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ومن بعدهم.

الفصل الخامس : مبادئ الطريقة الصوفية

لكل علم مبادئه أو أركانه، كذلك الطريقة التي هي جزء من الإسلام فلها مبادئها الخاصة. كما صرح به الشيخ أبو القاسم الجنيد البغدادي المتوفى سنة (297هـ) والإمام أبي القاسم عبد الكريم القشيري المتوفى سنة (465هـ) بأن المبدأ الأساسي لعلم التصوف هو ذكر الله، فلن يصل شخص إلى الله من أجل إلا بدوام ذكر الله سبحانه وتعالى. ونستطيع أن نذكر هنا بعض المبادئ المهمة التي ذكرت في كتب التصوف فهي كالتالي.

1. الشيخ أو المرشد

قال الكاشاني المتوفى (730هـ) : الشيخ هو الإنسان الكامل¹⁰⁴ في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة، البالغ إلى حد التكميل فيها، لعلته بأفادت القفوس وأمراضها وأدوائها، ومعرفتها بذواتها، وقدرته على شفائها والقيام بهداها، ان استعدت ووفقت لأهدافها.¹⁰⁵

¹⁰⁴ ابن عربي هو أول من استعمل تعبير الإنسان الكامل في الفكر الصوفي والفلسفي الإسلامي. انظر المعجم الصوفي للدكتور سعاد الحكيم. 1401هـ/1981م. المعجم الصوفي. بيروت. دندره للطباعة والنشر. الطبعة الأولى. ص : 160.

¹⁰⁵ الكاشاني. عبد الرزاق الكاشاني. 1992م. معجم اصطلاحات الصوفية. تحقيق د. عبد العال شاهين. القاهرة. دار المنار. ص : 172.

ولعل المراد بالإنسان الكامل هنا أحد أفراد من أمة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ،
 فلا يدخل النبي - صلى الله عليه وسلم - في مفهوم الإنسان الكامل، لأنه ليس هناك
 إنسان كاملاً يفوق أو يضاهي شخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم -، على أن مفهوم
 الإنسان الكامل السائد لدى السادة الصوفية هو سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم -.¹⁰⁶

يرى الصوفية ضرورة استرشاد المريد بشيخ ولي عارف لأحوال الطريق ومقاماته، وخفايا
 النفس، وعيوبها، وأعراضها حتى يتخلص منها المريد، ويسير في طريق تزكية النفس.¹⁰⁷

وذكر الشيخ عبد الصمد الفليمباني هذه الأساس فقال : والشرط الرابع هو المعلم الذي
 يهdy الطريق. والمراد من المعلم هو الأستاذ أو المرشد التي يعرف الطريق.¹⁰⁸

وقال العارف بالله أحمد بن أحمد بن عجيبة الحسيني (1160 - 1224هـ) في الفتوحات
 الإلهية: "لا بد الشيخ أن يكون ماهراً بأحوال القلوب، عارفاً بعلاها، عالماً بعلاجها".¹⁰⁹

والواقع أن من الشروط المهمة في التصوف الأثر الروحي أو يقال بلفظ أدق البركة. ولا توجد
 البركة إلا بواسطة الشيخ.

¹⁰⁶ سعاد الحكيم. معجم الصوفي. ص : 161.

¹⁰⁷ درنيقة. محمد أحمد درنيقة وسوهم توفيق المصري. 1992م/1413هـ. ابن تيمية والتصوف. طرابلس. مكتبة الإيمان. الطبعة الأولى.
 ص : 128.

¹⁰⁸ نفس المرجع. ص : 44.

¹⁰⁹ ابن عجيبة. العارف بالله أحمد بن أحمد بن عجيبة الحسيني. بدون تاريخ. الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية. مراجعة وتحقيق
 عبد الرحمن حسن محمود. القاهرة. عالم الفكر. ص : 105.

2. الصحبة

والأساس الثاني للطريقة هو الصحبة. لقد ظفر أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - نجاحاً باهراً وأصبحوا جماعة متميزة فذلك نتيجة الإرشاد الجاد والمستمر من الرسول - صلى الله عليه وسلم - فلقب الصحابة دليل على قربهم إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - وملازمتهم له.

قال الشيخ إبراهيم الباجوري الشافعي المتوفى سنة (1277هـ) عن أهمية الصحبة : وإذا كانت المجاهدة على يد شيخ من العارفين كانت أنفع، لقولهم : "حال رجل في ألف رجل أنفع من وعظ ألف رجل في رجل. فينبغي للشخص أن يلزم شيخاً عارفاً عن الكتاب والسنة، بأن يزنه قبل الأخذ عنه فإن وجد عليه على الكتاب والسنة لازمه، وتأدب معه، فحسب ما يكتسب من حاله ما يكون به صفاء باطنه، والله يتولى هدايته".¹¹⁰

وأوضح الشيخ عبد الصمد الفلمباني الهدف من صحبة الإخوان هو أداء العبادة جماعة كالصلاة. والراتب والذكر الجماعي، والتعاون على البر والتقوى، واجتناب المأثم.¹¹¹

¹¹⁰ الباجوري. الشيخ إبراهيم الباجوري. شرح الجوهرة للباجوري. ص: 133. والشيخ إبراهيم الباجوري شيخ الأزهر في عصره وهو من

العلماء الأعلام ومن المحققين في المذهب الشافعي.

¹¹¹ الفلمباني. سير السالكين. ص: 44.

أن المرء لا يرى عيوب وجهه إلا بمرآة صافية مستوية، تكشف له عن حقيقة حاله، فكذلك لا بد للمؤمن من أخ مؤمن مخلص ناصح صادق، أحسن منه حالاً، وأقوم خلقاً، وأقوى إيماناً، يصاحبه ويلزمه، فيري عيوبه النفسية، ويكشف له عن خفايا أمراضه القلبية إما بقاله أو بحاله. عن أبي هريرة رضي الله عنه : قال عليه الصلاة والسلام : "المؤمنُ مرآةُ المؤمن".¹¹²

وهذا الأساس على أمر الله سبحانه وتعالى الذي قال : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ).¹¹³ فالزميل أو القريب الذي يحيط بشخصاً في حياته اليومية والاجتماعية يؤثر في شخصيته وصفاته وحركاته وأخلاقه.

وفي الآية إيماء إلى تأثير قرناء المرء في سلوكه، وأن الواجب اختيار القرين الصالح والابتعاد عن قرين السوء، قال الله تعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم - : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ

¹¹² رواه أبو داود ورواه البخاري في "الأدب المفرد" وقال الزين العراقي: إسناده حسن. المناوي. الشيخ عبد الرؤوف المناوي.

1415هـ/1994م. فيض القدير شرح الجامع الصغير. بيروت. دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى. ج6، ص : 252.

¹¹³ سورة المائدة : 2.

رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ
أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنِ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا).¹¹⁴

ولذلك حذرنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في اختيار القرين حتى لا يضيع علومنا وأعمالنا بأثارهم. فقال - عليه الصلاة والسلام -: وعن أبي موسى - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : (إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كحامل المسك، ونافخ الكبر، فحامل المسك إما أن يجذبك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكبر إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة).¹¹⁵

وفي الحقيقة أن مميزات علم التصوف وأعماله بجانب البحث على الإخوان فإنها تثبت على إمامة المرشد.

3. ذكر الله والمراقبة

والأساس الثالث من الأسس المهمة في تجربة الطريقة في علم التصوف هو ذكر الله. كما بينه صاحب الرسالة القشيرية الإمام أبي القاسم عبد الكريم القشيري وأبو القاسم الجنيد

¹¹⁴ سورة الكهف : 28.

¹¹⁵ البخاري. أبو عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن مغيرة بن بردية البخاري. صحيح البخاري. 2011م. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه. دار النوادر. بيروت. رقم: 1959. ج. 7. ص: 287.

البغدادي: "والذكر ركن قوي في طريق الحق سبحانه وتعالى، بل هو العمدة في هذا الطريق، ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر".¹¹⁶

والمراد من ذكر الله في مبادئ الطريقة هنا ذكر الدرجات يعني الذكر الذي فيه كفايات، وشروط وآداب تشمل الآداب قبل الذكر وأثناءه وبعده.¹¹⁷

قال الشيخ علي المرصفي: "مثل السالك يذكر الله كمثل الشخص الذي يطير بسرعة إلى الله. ومثل السالك لا يذكر الله كمثل الشخص الذي يريد أن يقطع المسافة البعيدة ماشياً على صدره وقد يأتيه الأجل قبل أن يصل إلى مراده".¹¹⁸

فالذكر في هذه المرحلة هو ذكر الله الذي لقن به المرشد لمريده أو أخذه المريد من شيخه بالبيعة. كما يفعله المشايخ في الطرق الصوفية، بمعنى أن الذكر في هذه المرحلة هو الذكر في الطرق الصوفية.

وذكر العلامة المحدث المناوي، ثلاثة أقسام لزوم الذكر عند أهل الطريق من الأركان الموصلة إلى الله تعالى، وهو: ذكر العوام باللسان، وذكر الخواص بالقلب، وذكر الخواص بالخواص

¹¹⁶ القشيري. الرسالة القشيرية. ص: 342.

¹¹⁷ الفلمباني. الشيخ عبد الصمد الفلمباني. دون التاريخ. هداية السالكين. ترجمة بداية الهداية. سمارنج. س. ف. كريا إنسان إنونيسيا.

ص: 301.

¹¹⁸ نفس المرجع. ص: 301.

بفنائهم عن ذكرهم عند مشاهدتهم مذكورهم، حتى يكون الحق مشهوداً لهم في كل

حال.¹¹⁹

تترقى التجربية الروحية بترقي ذكر الله. وعلى سبيل المثال. الترقية من ذكر الغفلة يعني غفلة القلب من الله عند الذكر إلى ذكر اليقظة يعني يقظة القلب بالله عند الذكر. ثم يرتقي إلى ذكر الحضور يعني دوام ذكر الله ثم يرتقي إلى ذكر الغيبة فراغ القلب مما سوى الله، لأن الذي يملأ القلب هو الله وحده. كما ذكره ابن عطاء الله السكندري، فقال: "لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه، لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع حضور يقظة إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور، وما ذلك على الله بعزيز".¹²⁰

وأما المراقبة، لقد بين العلامة علي بن محمد الشريف الجرجاني المتوفى سنة (816هـ):
"استدامة علم العبد باطلاع الرب عليه في جميع أحواله".¹²¹

¹¹⁹ المناوي. الشيخ عبد الرؤوف المناوي. 1415هـ/ 1994م. فيض القدير شرح الجامع الصغير. بيروت. دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى.

¹²⁰ ابن عجيبة. إيقاظ المهم. ج، 1. ص: 316.

¹²¹ الجرجاني. العلامة علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني. بدون تاريخ. كتاب التعريفات. تحقيق الدكتور عبد المنعم الحفني. القاهرة. دار الرشد. ص: 266.

قال الشيخ المحاسبي المتوفى سنة (243هـ) : "علم القلب بقرب الرب عز وجل. إنما سألتني عن أوائل المراقبة، وكل من كان معه العلم بهذا فمعه شيء من المراقبة، ولا يستحق أن يقال له مراقب. دوام علم القلب بعلم الله عز وجل في سكونك وحركتك علما لازما للقلب، بصفاء اليقين، وكشف غطاء حجب الظلم، غير قاطع عن النظر بمشاهدة الغيب".¹²²

فعند المحاسبي فإن المراقبة لها بداية ونهاية. فبدايتها عنده هي استشعار قلب السالك أو روحه بحضور الله ولا يصور حال حضوره سبحانه وتعالى، وأما ذروتها عنده هي ثبوت استشعار القلب أو الروح بأن الله يعلمه كليا في كل الأحوال سكنا أو حركة. مع اعتقاد نقي طاهر من المفسدات والشوائب ومع اكتشاف أحجاب القلب من جميع الظلمات في دوام مشاهدة الله بلا انقطاع.

ودليل قاعدة هذا الذكر والمراقبة هو قوله تعالى : (الَّذِينَ يَلْتَكُمُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)¹²³ ولذلك كان ذكر الله أحد الأركان في الطريقة بل من أهم الأركان. وصرح الشيخ أبو علي الدقاق المتوفى سنة (406هـ) بذلك فقال : "ذكر الله ركن أساسي في الطريق

¹²² المحاسبي. أبو عبد الله الحارس بن أسد المحاسبي. 1406هـ/1986م. الوصايا. بيروت. دار الكتب العلمية. ص : 313.

¹²³ سورة آل عمران : 191.

إلى الله. بل هو العروة الوثقى في الطريق إلى الله. فلن يصل السالك إلى حضرة الله ورضاه إلا بذكر الله".¹²⁴

4. الخلوة

الخلوة أو العزلة أو السلوك، هذه المصطلحات الثلاثة عادة بمعنى واحد. رغم أن الشيخ زروق المتوفى سنة (899هـ) ذكر عن الخلوة، فقال في قواعده : "الخلوة أخص من العزلة".¹²⁵ وعنده أيضا أن تعريف الخلوة وتصورها أنها جنس أعمال الإعتكاف لكنها لم تؤدي في المسجد. مع إمكان أدائها في المسجد وهي بوجهها وصورها نوع من الإعتكاف، ولكن لا في المسجد، وربما كانت فيه.¹²⁶

وعند الشيخ عبد القادر عيسى "أنه التصوف المشهور في الشرق الأوسط في هذا العصر، فالخلوة الإنقطاع عن الناس في وقت معين، فالخلوة إذن : انقطاع عن البشر لفترة محدودة، وترك للأعمال الدنيوية لمدة يسيرة، كي يتفرغ القلب من هموم الحياة التي لا تنتهي، ويستريح الفكر من المشاغل اليومية التي لا تنقطع".¹²⁷

¹²⁴ الفلمباني. هداية السالكين. ص : 36.

¹²⁵ أبو عباس أحمد زروق. 1418هـ. قواعد التصوف. القاهرة. ص : 39. انظر حقائق عن التصوف في باب الخلوة.

¹²⁶ نفس المرجع. ص : 39.

¹²⁷ عبد القادر عيسى. 2001م. حقائق عن التصوف. دار العرفان. ص: 242.

وذكر حجة الإسلام الإمام الغزالي - رحمه الله - : "طريقة الخلوة ومراحلها ومقاماتها".¹²⁸

وينبغي في أثناء الخلوة من المحافظة على آدابها وشروطها. ومن شروطها المهمة هي الطهارة من النجاسة والحدوث، وقلة الكلام إلا عند الحاجة، وقلة الأكل والنوم وغيرها.

وأداء المتصوف أعمال هذه الخلوة مبني على الأدلة الصحيحة. دليل مشروعيتها عليها من القرآن الكريم : قال تعالى : (واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً).¹²⁹ وقيل يقال للعابد إذا ترك كل شيء وأقبل على العبادة قد تبتل أي انقطع عن كل شيء إلا من عبادة الله وطاعته.¹³⁰

وأما دليل اقتداءهم برسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقد كان يخلو بغار حراء. ذكر أبو جمرة - رضي الله عنه - في شرحه ما روي عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : (أول ما بدىء به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة،

¹²⁸ الغزالي. إحياء علوم الدين، ج، 3، ص: 66.

¹²⁹ سورة المزمل: 8.

¹³⁰ الخازن. علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الخازن. 1415هـ/1995م. تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل).

بيروت. دار الكتب العلمية. ج، 4، ص: 357.

ويتروى مثلها، حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء).¹³¹

فظهر بأن أعمال الخلوة التي مارسها أهل الطريقة ثابتة في الشريعة وليست من عندهم. وفي الواقع هنا تفاصيل عن الخلوة وسن فصلها - إن شاء الله في الباب القادم -.

5. مراعاة الأدب

الأساس الخامس للطريقة هو مراعاة الأدب يشمل الأدب مع الله والمرشد والإخوان ونفسه والمجتمع. فهذه الآداب مهمة في الطريقة فهو المفتاح للباب، فبدونه فلا يدخل السالك البيت.

قال أبو عمرو الزجاجي -رضي الله عنه-: "لو أن رجلاً كشف له عن الغيب، ولا يكون له أستاذ لا يجيء منه شيئاً". وقال إبراهيم بن شيان -رضي الله عنه-: "لو أن رجلاً جمع العلوم كلها، وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة، من شيخ أو إمام، أو مؤدب ناصح، ومن لم يأخذ أدبه عن أمر له يهلك عيوب أعماله ورعونات نفسه، لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات".¹³²

¹³¹ رواه البخاري في صحيحه باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي. 1392 هـ. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. بيروت. دار إحياء التراث العربي. الطبعة الثانية. ج، 18.

¹³² ابن عجيبة. الفتوحات الإلهية. ص: 87.

وأيضاً، فبدون أدب، لن يستطيع السالك أن يخشع في طريقته بل لن يصل إلى قصده. ولذلك صرح الشيخ أبو حفص الحداد النسابوري المتوفى سنة (269هـ) بقوله : "التصوف كله آداب : لكل وقت أدب، ولكل مقام أدب، ولكل حال أدب، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الآداب، فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يظن القبول".¹³³

فلما كانت المحافظة على الأدب من الأسس المهمة في الطريقة صنف علماء التصوف كتباً أو أبواباً تكلم فيها عنها، فعلى سبيل المثال، صنف الشيخ الجنيد المتوفى سنة (291هـ) كتاب تشييع الإرادة، وصنف الشيخ أحمد حارث الحاسبي كتابه الرعاية لحقوق الله. وصنف الشيخ محمد بن علي الترمذي كتابه بيان أدب المراد وغيره.

تقول الصوفية : "من نال مقاماً فدام عليه بأدبه ترقى إلى ما هو أعلى منه، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخذ أولاً في التحنث ودام عليه بأدبه، إلى أن ترقى من مقام إلى مقام، حتى وصل إلى مقام النبوة، ثم أخذ في الترقى في مقامات النبوة حتى وصل به المقام إلى قاب قوسين أو أدنى".¹³⁴

¹³³ المجويزي. كشف المحجوب. ص : 237.

¹³⁴ السلمي. طبقات الصوفية. ص : 119. أبي محمد عبد الله بن أبي حمزة الأزدي الأندلسي. 1353هـ. بحجة النفوس. مصر. مطبعة

الصدق الخيرية. ج، 1. ص : 10 - 11.

والآداب مع الله كثيرة منها الحفظ على أحكامه، تعظيمه سوا أكان في الملاء أو غيره. وذكر

الشيخ محمد أمين الكردي مما يتعلق بأداب السالك أربعاً وعشرين أمراً.¹³⁵

وبجانب ما سبق فلا بد للسالك من معاملة الناس بالخير، وأداء الواجبات والمسئوليات، كزيارة

الإخوان وغيره. فهذه جملة من الآداب التي يجب على السالك مراعاتها والمحافظة عليها فإن

الطريقة كلها آداب، حتى قال بعضهم: "اجعل عملك ملحاً وأدبك دقيقاً".¹³⁶

6. الهمة أو المجاهدة

الأساس السادس من مبادئ الطريقة هو "الهمة" فإن دراسة علم التصوف ترشد السالك إلى

فضل الله تعالى من الحقيقة والمعرفة. فلذلك نجد في سيرة الإمام الغزالي بأنه ترك منصبه، وباع

جميع ماله وهاجر من بغداد إلى دمشق لدراسة التصوف وتطبيقه ففضله الله تعالى

بالمعرفة. وقد حكى همته القوية في كتابه إحياء علوم الدين فقال: "الوصول إليه (معرفة الله)

بالمجاهدة التي جعلها الله سبحانه مقدمة للهداية".¹³⁷

وقال الشيخ عبد الصمد الفليمباني ذكر عنه فقال: "المجاهدة في سبيل الله طوال الحياة فلا

¹³⁵ الكردي. تنوير القلوب. ص: 531-534. البيان عن أداب السالك في باب الثالث، المبحث الأول: استعداد الخلوة ولبايتها.

¹³⁶ عبد القادر عيسى. حقائق عن التصوف: 52.

¹³⁷ الغزالي. الإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد. 2008م. إحياء علوم الدين. بيروت. دار الكتب العلمية. ج. 1، ص: 33.

تَحمَل ولا تغفل ولا تمل ولا تتعب لتصل إلى مرتبة عالية ومقام رفيع".¹³⁸ لجد في الجاهدة فإنه أمر من الله سبحانه وتعالى، قوله : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)¹³⁹

فالمُتصوفون مجدون في الجاهدة، بل قرروا بأن السالك إذا أراد الوصول إلى الله تعالى لا بد من الجاهدة بجد ونشاط. وصح عن هذا الشيخ ابن عجيبة -رحمه الله- فقال : "البدايات ما يظهر على المريد في أول دخوله من مجاهدة ومكابدة وصدق وتصديق وهو مظهر ومجلاة للنهايات أي يتجلى فيها ما يكون في النهايات فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته فمت رأيناه جاداً في طلب الحق بذلاً نفسه وفلسه وروحه وعزه وجاهه ابتغاء الوصول إلى التحقق بالعبودية والقيام بوظائف الرتبة علماً بفراق نهايته بالوصول إلى محبوبه وإذا رأيناه مقصراً في ذلك علمنا قصوره".¹⁴⁰

7. التقوى

التقوى امتثال أوامر الله سبحانه وتعالى واجتناب نواهيه. وهذا المبدأ شافق لما جاء في القرآن عن التقوى فأمر الله سبحانه وتعالى الإنسان بالتقوى.¹⁴¹ فالمتقون كقوله سبحانه : (مَنْ آمَنَ

¹³⁸ الفلمباني. هداية السالكين. ص : 44.

¹³⁹ سورة العنكبوت : 69.

¹⁴⁰ ابن عجيبة. إيقاظ الهمم. ج، 2. ص : 370.

¹⁴¹ الفلمباني. هداية السالكين. 3.

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى
وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا
عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ¹⁴². وبين الله سبحانه وتعالى مكانة
المتقين فقال : (فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)¹⁴³. وقال : (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ
الْمُتَّقِينَ)¹⁴⁴. وقال : (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)¹⁴⁵. وقال تعالى : (وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ)¹⁴⁶. وغيرها.
ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى الإنسان بالسابقة على الخيرات زادا للآخرة وقال : (وَتَزَوَّدُوا
فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)¹⁴⁷.
فبناء على أساس التقوى فلا بد للسالك في الطريقة من الاستقامة في التقوى والحرص على
ترقية تقواه. قال حجة الإسلام (الغزالي) رحمه الله تعالى - : "إن جلاء القلب وإبصاره يحصل
بالذكر، وإنه لا يتمكن منه إلا الذين اتقوا، فالتقوى باب الذكر، والذكر باب الكشف،
والكشف باب الفوز الأكبر، وهو الفوز ببقاء الله تعالى"¹⁴⁸.
فعلى هذا الأساس أيضا فلا بد للطريقة من الشريعة، ومعنى أنه يجب أن لا تخالف الطريقة

¹⁴² سورة البقرة : 177.

¹⁴³ سورة آل عمران : 76.

¹⁴⁴ سورة البقرة : 194.

¹⁴⁵ سورة الأعراف : 127.

¹⁴⁶ سورة الحاثية : 19.

¹⁴⁷ سورة البقرة : 197.

¹⁴⁸ الغزالي. إحياء علوم الدين. ج3، ص : 11.

الشريعة. وكما سبق بيانه من أن التقوي زاد للسالك إلى الله تعالى¹⁴⁹ فهذا يدل على أن هذا الأساس هو الأساس المهم في الطريقة. كما أن المسافر بدون زاد لن يصل إلى قصده لا سيما إذا كانت المسافة بعيدة وصعبة، فكذلك السالك، فبدون زاد التقوى فلن يصل الله تعالى ورضاه.

8. التوبة

التوبة أساس لكل المقامات والأحوال. وللتوبة مقامات أولها هي البداية التي لا بد لمن أراد الوصول إلى الله سبحانه وتعالى من قطعها. فمثلها كمثل الأرض بالنسبة للمبنى. فمن لا توبة له لا أرض له فلا مبنى له. والمراح من التوبة هي الرجوع من الصفات الذميمة إلى الصفات الحمودة.

كثير من آيات القرآنية ذكرت عن التوبة ووجوب التوبة ثابت في القرآن وسنة النبي - صلى الله عليه وسلم -. كما قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحاً).¹⁵⁰

¹⁴⁹ الفلمباني. هداية السالكين. ص : 45.

¹⁵⁰ سورة التحريم : 8. وسورة النور : 31. وسورة هود : 52.

وكان الرسول المعصوم -عليه الصلاة والسلام- كثيراً ما يجدد التوبة ويكرر الاستغفار تعليماً للأمة وتشريعاً: عن الأغر بن يسار المزني -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب في اليوم مائة مرة).¹⁵¹

قال أبو بكر الكتاني وأبو الحسن الرملي -رحمهما الله تعالى-: (سألنا أبا سعيد الخراز، فقلنا: أخبرنا عن أوائل الطريق إلى الله تعالى؟ فقال: التوبة).¹⁵² قال ذو النون المصري -رضي الله عنه-: "توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة".¹⁵³

وقسم بعض علماء التصوف التوبة إلى ثلاث درجات. فهي التوبة والإنابة والأوبة. فالتوبة توبة العوام من المؤمنين من الكبائر وهذه مرحلة التائب. أما الإنابة فتوبة الأولياء والمقربين وهذه مرحلة المنيب. أما الأوبة فتوبة الأنبياء والرسول وهذه مرحلة الأوبة. وقيل بأن من رجع عما يخالف حكم الله خوفاً من عذابه فهو تائب. ومن رجع إلى الله حياءً من نظر الله فهو منيب. ومن رجع إلى الله تعظيماً فهو أواب. ينبغي الإنسان أن يتوب إلى الله تعالى إذا ابتلي بمعصية، لا تصح توبته أبداً إلا باجتماعها أركان التوبة الثلاثة: فيقلع عنها في الحال، ويندم على ما فعل، ويعزم ألا يعود إلى مثلها.

¹⁵¹ رواه مسلم في صحيحه في كتاب الذكر. مسلم. أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد. بلون التاريخ. صحيح مسلم.

القاهرة. دار الكتب العربية.

¹⁵² عبد القادر عيسى. حقائق عن التصوف. ص: 138.

¹⁵³ القشيري. الرسالة القشيرية. باب التوبة. ص: 47.

9. طلب العلم

والأساس التاسع في مبادئ الطريقة هو طلب العلم. فبناء على هذا الأساس فينبغي للسالك من طلب ثلاثة فروع علم الدين وهي علم التوحيد وعلم الفقه وعلم التصوف فهو فرض عين.¹⁵⁴ فهذا الأساس يصدق لأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة).¹⁵⁵ والعلم أيضاً أساسه التقوى، فلا يصح التقوى بدون العلم. ولعلك قال تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ).¹⁵⁶ وعن أبي بكر - رضي الله عنه - قال : سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : (أغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً ولا تكن الخامسة فتهلك، قال عطاء : قال لي ابن مسعود : زدتنا خامسة لم تكن عندنا، والخامسة : أن تبغض العلم وأهله).¹⁵⁷ ولهذا اعتبر اكتساب العلم الضروري من أهم النقاط الأساسية في المنهج العملي للتصوف، إذ ليس التصوف إلا التطبيق العملي للإسلام كاملاً غير منقوص في جميع جوانبه الظاهرة والباطنة.¹⁵⁸ فإن طلب العلم العقبة الأولى لا بد للساكن من قطعها، لأن العلم أساس العبادة والعبودية.

¹⁵⁴ الفلمباني. هداية السالكين. ص : 34.

¹⁵⁵ رواه أحمد وأبو ماجه. أبي طالب المكي. محمد بن علي بن عطية الخارثي. 1426هـ/2005 م. قوت القلوب في معاملة المحبوب.

ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد. تحقيق د.عاصم إبراهيم الكيالي بيروت. دار الكتب العلمية. الطبعة الثانية. ص : 137.

¹⁵⁶ سورة الفاطر : 28.

¹⁵⁷ رواه الطبراني في الثلاثة والبرار ورجاله موثقون. الهيثمي. علي بن أبي بكر أبو الحسين نور الدين الهيثمي. 1994م. بنية الزوائد في تحقيق مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. تحقيق عبد الله الدرويش. بيروت. دار الفكر. ج، 1. ص : 122.

¹⁵⁸ عيسى عبد القادر. حقائق عن التصوف. ص : 53.